

القراءة الأسطورية للشائخ

د. قاسم عبده قاسم

تعريفات ومفاهيم - العلاقة بين الأسطورة والتاريخ - أساطير المنطقة العربية القديمة ودلالاتها - القراءة الأسطورية: أسبابها ومغزاها

عصور ما قبل الكتابة؛ ولذلك كان من الضروري أن يلجأ الإنسان إلى الأسطورة لتفسير اللغز المتعلق بوجوده في الكون هذه الرغبة في معرفة الماضي والاهتمام به عكست القلق الوجودي الذي تملك الإنسان وجعله يتوق إلى معرفة أصول الوجود والأشياء والعلاقات وربما كان هذا القلق الوجودي وراء تلك المفاهيم الكونية المشتركة بين الشعوب جميعاً؛ ومنها الاعتقاد في وجود روح خالقة، ومنها أن هذه الروح الخالقة (أى الإله) بعيدة عن دنيا البشر على الرغم من الاعتقاد بأنها كانت على اتصال بهم في بداية الخليفة، ومنها الاعتقاد في وجود وسائط مختلفة بين هذه الروح الخالقة والبشرية؛ مثل الأرباب المحلية، والأسلاف المقدسين وما إلى ذلك. ومن هذه المفاهيم الكونية المشتركة أيضاً الاعتقاد في وجود شفعاء بشريين متنوعين مثل الكهنة والقديسين والموالى والأنبياء... وغيرهم ممن يمتلكون القدرة على التحرك من مجال حركة الإنسان العادى إلى المجال الذى تتحرك فيه الآلهة أو الروح الخالقة، كذلك أنتج القلق الوجودي للإنسان أسئلة كونية مشتركة بين بنى الإنسان عن بدايات الأشياء وأصولها والظواهر الطبيعية والاجتماعية المحيطة.

التاريخ، فى أحد معانيه، قصة الإنسان فى الكون وعلى الرغم من أن عمر قصة الإنسان فى الكون، ونشاطه على هذا الكوكب، تضرب بجذورها فى أعماق الزمن إلى حوالى نصف مليون سنة، فإن الجزء الذى سجله الإنسان من هذه القصة الطويلة لا يغطى سوى خمسة آلاف سنة، أى ما يساوى واحداً على مائة فقط من الفترة التى شهدت نشاطه على سطح الأرض وهكذا غابت فصول البداية من قصة الإنسان فى ضبابية النسيان، وضاعت خيوطها لأنه لم يكن يعرف، فى تلك الفترة الباكورة من تطور العقل الجمعى للبشرية، كيف يحفظ الذاكرة الكلية للجنس البشرى. وحين أراد الإنسان أن يعرف قصته فى الكون، أو فصول البداية فيها، لجأ إلى الخيال يرقع به النقص فى ذاكرته؛ ومن هنا عرف الأسطورة.

كانت الأسطورة نتاجاً طبيعياً لرغبة الإنسان فى معرفة الماضى؛ ومن ثم كان الاهتمام بالماضى لدى كل شعوب الدنيا هو البذرة التى خرجت منها «فكرة التاريخ» عند كل شعب. وهذا الاهتمام بالماضى، فى شكله البدائى والأولى، لم يجد ما يدعمه من الحقائق التاريخية المدونة أو الوثائق المسجلة فى

هذه المفاهيم والأسئلة الكونية المشتركة عبّرت عنها الشعوب بوسائل مختلفة، منها الأسطورة والحكاية الشعبية والملاحم البطولية القديمة، وما تحمله من مفاهيم الزمان والمكان، كما عبّرت عنها بأفعال وممارسات متنوعة مثل تقديم القرابين والأضحية، وإقامة الصلوات، واستطلاع النبوءات، والحج... وما إلى ذلك.

ويهمنا أن نركز على الأساطير والملاحم باعتبارها القراءة الأولى لتاريخ البشرية، وإذا كان الإنسان قد حاول معرفة الماضي لكي يفهم حاضره من جهة، ولكي يجد في هذا الماضي سنداً لوجوده الاجتماعي الحاضر من جهة أخرى، فإن الأساطير والملاحم القديمة كانت وسيلته الأولى في قراءة هذا الماضي. ولهذا السبب كانت الأسطورة محل الدراسة والاهتمام من جانب علماء الفولكلور، وعلماء النفس، وعلماء اللغة، ومؤرخي الأديان، وعلماء الأنثروبولوجي. وكان طبيعياً أن تختلف تفسيرات كل فريق عن تفسيرات الفريق الآخر. كذلك فإن التعريفات والمصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالأساطير والملاحم القديمة اختلفت وتنوعت بقدر اختلاف اتجاهات الباحثين وتنوعها. ومن ثم فإننا سنحاول عرض بعض هذه التعريفات والمصطلحات والمفاهيم.

فالبعض يرى في الأساطير مجرد خرافات نافهة لا تحمل سوى قدر ضئيل من الأهمية الثقافية والروحية. ويرى هذا الفريق أن الأسطورة «ليست حقيقية»، أو «زائفة»، على نحو ما وهذا مفهوم يتسم بالسذاجة وسوء الفهم في الوقت نفسه. إذ إنه ليس هناك مجال لمناقشة ما تحمله الأسطورة من «حقيقة علمية»؛ لأن هذا الأمر غير وارد على الإطلاق فهذا التعبير الأسطوري تعبیر عن المجتمع ومكان الإنسان في هذا المجتمع وفي الكون المحيط به، بيد أن هذا التعبير تعبیر رمزي وليس تعبیراً حقيقياً.

وعلى النقيض تماماً من هذا الرأي نجد من العلماء من يعتقد أن أساطير القدماء تمثل واحداً من أهم إنجازات الروح الإنسانية والعقل الإنساني التي لم تلوّثها فذلّة الروح العلمية والتحليلية العقلانية السائدة في أيامنا هذه. ويرى هذا الفريق، أيضاً، أن الأساطير تفتح آفاقاً رحبة للرؤى الكونية التي حجبت وراء أستار الفكر الحديث بكل تعريفاته المانعة ومنطقه الذي يفتقر إلى الروح^(١).

ويرى البعض، من أمثال تايلور وفريزر، أن الأسطورة تعبّر عن الجزء المنسي من أصل البشرية والكوارث الطبيعية (مثل الفيضان، والبراكين، والأعاصير، والزلازل) التي حلت

بالمجتمعات البشرية، وغير ذلك من أحداث التاريخ الباكّة وهو ما يعنى في رأينا أن الأسطورة قراءة للتاريخ تحاول تعويض الجزء الذي نسيته الذاكرة الإنسانية الجامعة. وثمة تناول للأساطير يميل إلى التفسير الاجتماعي بدرجة أكبر، بدأه ماوس Mauss ودور كايم ويمثله ليفي شتراوس وليش. ويرى أن الأسطورة وسيلة لشرح تناقضات النظام الاجتماعي والعلاقة بين السلطة والقوة^(٢).

وما يزال الكثيرون ممن يكتبون في موضوع الأساطير يأخذون بالتعريف النقدي الضيق للأسطورة ويرون أن الأساطير «... قصص وحكايات عن الآلهة ينبغي تمييزها عن الحكايات الشعبية التي يكون الأشخاص الفاعلون فيها من البشر...» كما أن هناك علماء آخرين عرّفوا الأسطورة بأنها «... شكل ضروري وكوني للتعبير إبان تلك الفترة الباكّة من تاريخ التطور العقلي للبشرية، وفيها تعزى الأحداث التي لا يمكن تفسيرها، أو شرحها، إلى التدخل المباشر من جانب الآلهة...». ويرى هذا الفريق من العلماء أنه غالباً ما يتم ربط هذه الأحداث بالظواهر الطبيعية، كما أن الموضوعات السائدة في الأساطير تتسم بعدم المنطقية. وتقول إيديث، الباحثة المتخصصة في الدراسات الكلاسيكية، إن الأسطورة الحقيقية لا علاقة لها بالدين، لأنها محاولة لتفسير شيء ما في الطبيعة، وشرح الكيفية التي جاء بها كل ما في الكون إلى الوجود^(٣)، وهناك من يرى أن الأسطورة تفسير لعلاقة الإنسان بالكائنات؛ أي أنها رأى الإنسان فيما كان يشاهد حوله وهو في حال البداوة الأولى؛ فالأسطورة مصدر أفكار الأولين، وهي الدين والتاريخ والفلسفة جميعاً لدى القدماء. وهي ليست بدائية أو خاطئة بل إنها فكرة تاريخية بدائية صيغت في قالب الإطناب والمغالاة تأكيداً لأهمية الرمز الذي تحمله^(٤).

وهناك مدارس كاملة من علماء الأساطير المحدثين الذين يجادلون بأن الأسطورة ترتبط برباط وثيق مع الطقوس والشعائر بحيث يذهبون إلى القول بأن الأساطير لم تكن شيئاً سوى الطقوس منطوقة بالكلمات، وأن الأساطير والطقوس وجهان لعملة ثقافية واحدة. ومن ناحية أخرى، نجد من بين مؤرخي الأديان من يزعم أن الأساطير القديمة كانت في بداياتها عبارة عن حكايات خيالية تطورت من أجل تفسير طبيعة الكون، ومصير الإنسان وأصول العادات والتقاليد والمعتقدات والممارسات الاجتماعية السائدة. ومن أجل المساعدة في تفسير أسماء الأماكن المقدسة والأفراد البارزين. كذلك فإن هناك من علماء النفس من يرى في الأساطير القديمة عناصر يمكن أن تزيح النقاب عن العقل الباطن

الجمعى لبنى الإنسان. ويرى بعض علماء اللغة والفيلولوجيا أن الأسطورة «مرض من أمراض اللغة، وأنها نتاج لىأس الإنسان وإحباطاته لأنه حاول، دون جدوى، أن يعبر عما لا يمكن التعبير عنه» (٥).

هذه هى أهم التفسيرات والشروح والمفاهيم التى صاغها الباحثون والعلماء فى فروع العلم الإنسانى والاجتماعى حول الأسطورة ومغزاها ودلالاتها. ومن الواضح أننا نواجه مشكلة التحديد الجامع المانع الذى يهرب منا كلما أردنا تعريفًا فى الدراسات الإنسانية والاجتماعية. وتظل المشكلة قائمة لأن المتخصصين فى كل فرع من فروع هذه الدراسات سوف يضعون التعريف الذى يناسب مجال عملهم ويقدم لهم التفسير الذى يساعدهم على الإفادة به فى مجالهم البحثى. ومن الواضح أن هذه التفسيرات والشروح والمفاهيم التى دارت حول الأسطورة قد اعتمدت على كيفية قراءة نصوص الأساطير الأصلية بالشكل الذى دونت به فى سجلات الشعوب القديمة. وبغض النظر عن التفسيرات المختلفة للأسطورة (٦)، فإن ما يهمنا هو أن الأسطورة كانت بمثابة «القراءة، الأولى والأولية لتاريخ الإنسان؛ وهى قراءة تعويضية ورمزية فى آن معاً. إذ كانت القراءة الأسطورية للتاريخ تعويضاً عن غياب «الحقائق التاريخية، الجزئية التى لم يسجلها الإنسان فى بواكير رحلته، التى لم تتم بعد، فى رحاب الزمان. إذ بدأ تدوين «بعض، منجزات البشرية فى «بعض، الأماكن من هذا العالم، فى عصر الكتابة فقط. ومن ثم، فإن التاريخ المكتوب يحوى سجلاً ناقصاً لما أنجزته البشرية فى بعض مناطق العالم خلال الخمسة آلاف سنة الأخيرة من وجود الإنسان على سطح كوكب الأرض وهى فترة تساوى واحداً بالمائة من زمان الإنسان حسب تصور العلماء (٧) فإذا كان ذلك كذلك، علينا أن نتصور مدى ما كانت عليه حاجة الإنسان لمعرفة ماضيه من ناحية، ومدى تصور إمكانياته وضعف وسائله فى البداية عن تلبية هذه الحاجة من ناحية أخرى.

هكذا، إذن، كانت الأسطورة وسيلة الإنسان الأول «لكى يعوض، هذا النقص فى معرفة ماضيه بما يحويه من أصول الكون والظواهر والأشياء الماثلة أمام ناظره فى الطبيعة، أو لتفسير العقائد والعادات والتقاليد والممارسات الاجتماعية، وشرح المؤسسات والقوانين والأفكار والقيم الحاكمة داخل الجماعة الإنسانية. ولم يكن ثمة بديل عن الأسطورة التى قامت بهذه الوظيفة الاجتماعية الثقافية الضرورية ولذلك ظهرت أساطير الخلق والأصول عند كل شعوب الأرض لكى تقدم الإجابة المناسبة على الأسئلة الملقة التى طرحها على

نفسه، أو طرحت نفسها عليه. ولعل هذا هو السبب فى أن البعض يعتبرون الأسطورة أم العلوم والمعارف الإنسانية عامة، وأن التاريخ، باعتباره علماً، ولد من رحم الأسطورة وترى فى حجرها.

من ناحية ثانية، كانت الصياغات الأسطورية «قراءة رمزية، للتاريخ بقدر ما كانت «قراءة تعويضية، فالأسطورة تعبير عن وعى الجماعة الإنسانية بذاتها، وإدراكها لهويتها، كما أنها تعكس بناء الحياة الاجتماعية وعلاقة المجتمع بعالم الآلهة والقوى الغيبية (٨) ولأن أساطير العالم القديم تتألف، غالباً، من حكايات الآلهة والأبطال الخارقين، ميلادهم ومماتهم، الحب والكراهية، النصر والهزيمة، فضلاً عن أعمال الخلق وأفعال التدمير، كما تهتم بخلق الكون وتنظيمه، وتكوين الإنسان وتشكيله، وتأسيس الحضارات والأمم، فإن هناك تشابهاً فى موضوعات هذه الأساطير. ومع ذلك فإنها تختلف اختلافاً بيناً من حيث اختيار الموضوعات الفردية وتناولها بالشكل الذى يتسق مع التاريخ والثقافة والجماعة الإنسانية التى أنتجتها، أى أن الأسطورة تعبير رمزى عن جزء من تاريخ الجماعة وثقافتها المتميزة.

لقد أدخلت الأساطير ظاهر البيئة الطبيعية فى قراءتها «الرمزية، لتاريخ الإنسان فى الكون إذ حاولت الأساطير الأولى أن تفسر ما صعب على الإنسان إدراكه فى بداية رحلته الكونية، بيد أنها عجزت عن توضيح البعد الزمانى والبعد المكانى فى هذه القراءة الأسطورية للتاريخ الإنسانى. ذلك أن الزمن فى الأسطورة متداخل دونما تحديد لأن بناءها يقوم على أساس أن زمانها لم ينته، بل مازال مستمراً لأن الإنسان فى حاجة متجددة إلى ما تقوم به الأسطورة من وظيفة ثقافية/ اجتماعية. ومن ثم، فإن الفكرة الأسطورية عن الزمن فكرة كيفية مجسمة، وهو ما يناسب الرموز التى تحملها، على حين أن الفكرة التاريخية عن الزمن فكرة كمية مجردة بحيث تناسب التتابع الزمنى للأحداث التى يسجلها التاريخ ويهتم بتفسيرها (٩). إذ إن الأسطورة، بقراءتها التعويضية والرمزية لتاريخ الإنسان الباكر، لا تعرف الزمن بوصفه تتابعاً للحظات زمانية متشابهة متعاقبة (مثل الأيام والشهور والسنين والقرون)، ولذلك فإن الإنسان الأول عندما استعان بالقراءة الأسطورية للتاريخ، لكى يضع تصوراً للماضى يجيب على أسئلته الحائرة المحيرة، لم يعرف فكرة الزمن الذى يشكل قاعدة الظاهرة التاريخية وإذا كان هناك من يصف علم التاريخ اليوم بأنه «علم مترمن، بمعنى أن الزمن يمثل قاعدة التاريخ وإطاره وأن البحث التاريخى يجب أن يهتم بالتعاقب

الزمنى، فإن القراءة الأسطورية للتاريخ أغفلت الزمن تماماً لسبب بسيط هو أن الإنسان لم يكن يهيمه أن يعرف «متى» حدث ما حدث، ولكنه كان يريد أن يعرف «ماذا» حدث فى الماضى الذى لم تسجله ذاكرته.

ومن ناحية أخرى، فإن علاقة الأسطورة بالمكان هى نفسها علاقة البناء الفنى برموزه أى إن الأماكن الحقيقية فى هذا العالم لا وجود لها فى الأسطورة؛ ذلك أن المكان، أو البيئة الطبيعية رمز لما تحمله الأسطورة من المضامين والدلالات والمعزى، ولكنه ليس مكاناً حقيقياً، كما أنه ليس مسرحاً طبيعياً لأحداث الأسطورة التى تجرى خارج حدود المكان وخارج إطار الزمان.

هكذا، إذن، كانت القراءة الأسطورية للتاريخ نتاجاً لنقص المعرفة بالماضى أساساً. وربما يكون الأمر بحاجة إلى مزيد من البسط والتوضيح فى هذه النقطة، فعلى الرغم من أن الفترة التى سجل فيها الإنسان جزءاً من إنجازاته خلال الخمسة آلاف سنة الأخيرة من وجوده على سطح هذا الكوكب فترة بالغة الضالة بالنسبة لتاريخه فى الكون، فإن هناك عيوباً خطيرة وقصوراً شديداً يشوب هذا التسجيل كما أن الصورة التى تخرج بها من هذا التسجيل صور فوضوية مربكة - بسبب جزئيتها - بحيث يصعب أن نجد فيها نموذجاً يمكن من خلاله تفسير التاريخ الإنسانى، كما يصعب أن نجد فيها اتجاهات مرشدة إلى حركة التاريخ، وعلى الرغم من أن علم الآثار ساعدنا كثيراً فى كشف غوامض الفترة السابقة على عصر الكتابة، فإن علم الآثار نفسه علم حديث نسبياً ولم يعرفه الإنسان سوى فى القرنين الأخيرين من عمر البشرية. ويقودنا هذا بالضرورة إلى تقدير الدور الذى قامت به الأساطير فى «قراءة تاريخ ما قبل التاريخ المكتوب». ذلك أن الأساطير فى قراءتها لتاريخ الفترة السابقة على الكتابة كانت من أهم «الأدوات الثقافية» التى طورها الإنسان وحسنها لكى تساعد على البقاء.

لقد نجح الإنسان فى البقاء والتكاثر بفضل الأدوات التى ابتكرها وطورها لكى تعينه على الحياة سواء كانت تلك الأدوات أدوات مادية أم ثقافية أم روحية. وتعلم الإنسان أن يستخدم تلك الأدوات مثلما تعلم كيف يبتكرها من قبل. وبفضل أدوات الإنسان كان يتحدد شكل الفعل أو رد الفعل، الذى يصدر عنه تجاه العالم الخارجى بيد أن ابتكار تلك الأدوات المادية والروحية، واستخدامها وتطويرها، استغرق زمناً طويلاً وتجارب حافلة بالمحاولات والأخطاء والانطباعات والتذكر والمقارنات، ذلك أن مجرد استخدام شظية من حجر صلب

سلاحاً كان ثمرة تجربة طويلة؛ فما بالنا بالأدوات الأشد تعقيداً؟ ولأن الإنسان كائن اجتماعى فهو يولد بالفطرة وارثاً للتقاليد والعادات والخبرات والممارسات الاجتماعية.

وإذا كانت أدوات الإنسان المادية نتاجاً اجتماعياً فى حد ذاتها حسبما يقول أحد علماء الآثار^(١٠) فمن المؤكد أن أدواته الثقافية والروحية كانت نتاجاً اجتماعياً وثقافياً توارثته الأجيال وهكذا كانت كل من الأدوات المادية والأدوات الثقافية والروحية، التى نقلتها خبرات تراكمية من جيل إلى جيل يليه، سلاح الإنسان الذى أعانه على البقاء والتكاثر على سطح هذا الكوكب، وإحكام السيطرة عليه تدريجياً. والأسطورة كانت واحدة من أدوات الإنسان الثقافية والروحية لفهم لغز الوجود فى الكون عندما كانت أدواته الأكثر تقدماً ما تزال فى طور التكوين، فمن عباءة الأسطورة خرج العلم والفلسفة والقانون والفن وغيرها من أدوات الإنسان الثقافية والروحية التى تسند وجوده فى الكون حالياً. فقد لجأ الإنسان إلى الأسطورة عندما كان العقل البشرى فى طور طفولته الأولى، ولم يكن رصيده من الخبرات المعرفية كافياً لأن يقدم له الإجابات المناسبة التى تهدئ من قلقه الوجودى. ويمرور الزمن زادت خبراته المعرفية بحيث اتخذ العلم وسيلة لفهم الكون.

فالإنسان هو الكائن الوحيد بين خلق الله الذى يدرك ماهية الزمن، ويفهم صيرورته من آن لآخر (الماضى. الحاضر. المستقبل) ويفيد من عملية مرور الزمن، بحيث يكتسب مزيداً من الخبرات كلما مر عليه الزمن، ولأن الإنسان يتوارث الخبرات المعرفية والاجتماعية فإن المجتمع الإنسانى يتقدم بفضل التراكم المعرفى الذى يوفر على كل جيل مشقة البدء من البداية نفسها، ففى المجتمعات الإنسانية وحدها يرث الجيل اللاحق خبرات الأجيال السابقة ويضيف إليها، وبهذا تقدم الإنسان فى رحلته عبر الزمان. وهو مالا يحدث بطبيعة الحال فى جماعات الحيوان، أو الطيور، أو الأسماك، أو النباتات؛ إذ لا يمكن لأسراب البط، على سبيل المثال، أن تفيد من عملية مرور الزمن بحيث تكتسب أية خبرات تورثها للأجيال التالية، كما تحتفظ أشجار المانجو، مثلاً، بخصائصها الطبيعية جيلاً بعد جيل دونما تغيير. والإنسان هو الذى يتدخل لتغيير الصفات الوراثية فى الكائنات الأخرى بفضل العلم والخبرات المعرفية التى تراكمت لديه عبر الزمان.

وما نريد قوله هنا إن الإنسان حين يرث خبرات السابقين، يجد نفسه بحاجة إلى أدوات ثقافية وروحية تبرر استمرارها وتمسكه بها إذا ما كانت ضرورية لحياته الاجتماعية، هذه

الأدوات الثقافية والروحية تساعد على شرح أصول موروثاته، وتكوين الإيديولوجيا التي تساعد في حاضره ومستقبله. وكانت الأسطورة إحدى أهم أدوات الإنسان لفهم هذه الموروثات وتبرير استمرار بعضها.

من ناحية أخرى، فرضت الحياة الاجتماعية على البشر اختراع اللغة، أى تلك الأصوات التي تحمل معانى تم الاتفاق عليها، وبالاتفاق باتت تلك الأصوات دالة على أفعال، أو صارت رموزاً لأشياء مادية ولا مادية، ومن المحتمل أن الكلمات الأولى لبنى الإنسان كانت هى تلك التي تحمل معانى الأشياء الماثلة أمامهم. وفي رأى بعض العلماء أن شكل الشفاه في نطق بعض الكلمات يشي بمحاولة تقليد المعنى الذي تحمله الكلمة، لأن هناك تشابهاً بين كلمات البدائيين ومعانيها^(١١) ولأن اللغة تنقل الموروث الاجتماعي وتشكله، مثلما يشكلها المجتمع ويطورها، فإنها أكثر من مجرد وسيلة لنقل التراث لأنها لا تكتفى بالنقل وإنما تؤثر فيما تنقله ويؤدى هذا بالضرورة إلى أن تكون اللغة من بين عناصر رؤية الجماعة لذاتها، أى أنها من أهم عناصر تكوين الإيديولوجيا التي تتحرك الجماعة الإنسانية في إطارها على حد تعبيريها الحديث. فمن الواضح أن الإيديولوجيا نتاج اجتماعي تكفلت اللغة بصياغته، والسبب في ذلك أن اللغة ليست مجرد نتاج للحياة الاجتماعية من ناحية، كما أن التفكير في معانيها لا يمكن أن يتم بمعزل عن السياق الاجتماعي من ناحية أخرى، وفضلاً عن ذلك، فإن الأفكار التي تحملها اللغة لا يمكن أن نصير أفكاراً حقيقية، ولا يمكن أن تكتسى أية قوة تأثيرية، مالم تحظ بالقبول الاجتماعي.

والإيديولوجيا - بصرف النظر عن تعريفاتها المختلفة - هى التي تجعل المجتمع متماسكاً وتبرر التصرفات الاجتماعية إزاء الآخر وإزاء الذات، فهى رؤية المجتمع لذاته ولدوره ولعلاقته بالآخر، ومن هذه الناحية نجد الإيديولوجيا منعكسة على نتاج المجتمع الثقافي والروحي، وهو ما يصدق على أساطير المجتمع بطبيعة الحال. فالأسطورة - كما أسلفنا القول - تعبير رمزي وتعويضى عن الهوية والذات الاجتماعية.

فإذا انتقلنا من هذه النقطة إلى طبيعة «القراءة الأسطورية للتاريخ» وخصائصها وجدنا أن هذه القراءة أغفلت دور الإنسان في الفعل التاريخي؛ ذلك أن التراث البشرى الباكر في «قراءة التاريخ» - وليست كتابة التاريخ - اتسم بذلك الخلط المثير بين فعل البشر وفعل الآلهة والقوى الغيبية؛ ومن ثم جاءت «الكتابات التاريخية، الأولى في حقيقة أمرها «قراءة،

لأحداث غير مفهومة وقعت في زمن سحيق فنسبتها إلى الآلهة لأنها لم تستطع أن تفسرها بحيث تنسبها إلى البشر، والسبب في ذلك أن «القراءة الأسطورية للتاريخ»، لم تستطع في تلك الفترة الباكرة من تاريخ العقل البشرى أن تكتشف العلاقة السببية الموضوعية داخل تلك الأحداث وفي هذه «القراءة»، لم يكن البشر يمثلون عنصراً من عناصر القوة والنشاط والفعل؛ بيد أنهم كانوا وسيلة هذا النشاط وأدواته المسخرة بأيدي الآلهة^(١٢).

وهكذا كانت القراءة الأسطورية للتاريخ، والتي حملتها التسجيلات التاريخية الباكرة، محاولة لتبرير سلطة حكومات الآلهة، أو أشباه الآلهة، التي خضعت لها الشعوب في الزمن القديم، فقد زعم حكام كثيرون أنهم من نسل الآلهة، أو أنهم وسائط بين البشر المحكومين والآلهة. ولم يكن ممكناً لمثل هذه السلطة الاستبدادية المطلقة التي تمتع بها الحكام قديماً أن تلقى القبول والرضى من المحكومين دون إضفاء نوع من القدسية عليها. ومن ناحية أخرى، لم يكن ذلك ممكناً بدون الأساطير التي تدعم هذه المزاعم وتحكى عن الأصول والبدائيات التي خرج منها النظام السياسى والبناء الاجتماعى. ولأن التاريخ لم يكن قد نزل من عليائه الأسطورية لكى يسجل قصة الإنسان فى الكون وسعيه لبناء الحضارة، إذا كانت الأسطورة تحكم التاريخ وتصيغه بصيغتها فالأسطورة فى هذه الحال «قراءة، لتاريخ مقدس تلعب فيه حكومات الآلهة وأشباه الآلهة الأدوار الرئيسية، وليس للإنسان فيها دور المفعول به.

كان التطور التالى فى تاريخ الأسطورة، بعد اهتمامها بالخلق والأصول، أن تنزل من سماء الآلهة والمعبودات إلى عالم الإنسان، فبدأت «تقرأ» تاريخه وفق شروطها وفى إطار رموزها، ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن الأساطير «تسجيل تاريخي» للأحداث التي جرت عبر ماضى الجماعات الإنسانية والشعوب، على حين يذهب البعض الآخر إلى القول بأن الأسطورة تحكى «تاريخاً قديماً متوارثاً بالتقليد الشفاهي بين الأجيال المتعاقبة»^(١٣) وأياً كان الرأى، فالواضح أن الأسطورة تحمل التاريخ بشكل أو بآخر. وفي رأينا أن الأسطورة لا تحمل التاريخ كله، وإنما تحمل «نواة تاريخية» تتولى تفسيرها وشرحها. وغالباً ما تكون هذه الصياغات الأسطورية لهذه «النواة التاريخية» محملة بترجمات تعبير عن وجدان الجماعة التي أنتجتها، كما أنها فى الوقت نفسه تعبير عن الذات والهوية فى قالب رمزي يناسب بناء الأسطورة فهى ليست تجسيدا للواقع التاريخي، وإنما هى «قراءة، تحاول تفسير هذا الواقع التاريخي برموزها وداخل إطارها.

وليس معنى هذا أن الأسطورة نتاج للخيال المجرد، بل هي ترجمة لملاحظات واقعية ورصد لحوادث تاريخية، ولكن في إطار فني يخدم الأهداف الثقافية / الاجتماعية التي يحتاج المجتمع إلى تحقيقها من خلال أساطيره ولم يكن ممكناً أن نعرف شيئاً عن تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة سوى عن طريق الأساطير التي حملت لنا الأحداث التي جرت في عصور سحيقة تسبق التاريخ المكتوب، وربما يكون هذا هو السبب في أن البعض يرى أن الأساطير... نظام فكري متكامل استوعب قلق الإنسان الوجودي، وتوقه الأدبي لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه... (١٤)، ومن يبحث في الأساطير سيجد في ثناياها مادة تاريخية ثرية.

فالأساطير التي تتحدث عن الطوفان، أو التدمير بالنار السماوية، أو الأعاصير والعواصف التي تتسم بالشمولية، وتكرر في تاريخ معظم الشعوب، دلالة على تجارب تاريخية وخبرات عاناها الجنس البشري في بواكير وجوده على كوكب الأرض (١٥). ومن المهم أن نلاحظ أن أساطير الخلق والتكوين قد سربت بعض تفاصيلها في الكتابات التاريخية اللاحقة بشكل يكشف عن مدى تأثير الأسطورة المتوارث في المنطقة العربية، خاصة أساطير الخلق والتكوين السومرية (١٦).

ويقودنا هذا إلى الحديث عن أساطير بلاد الرافدين (العراق) القديمة إذ ترجع حضارة بلاد العراق القديمة إلى عصور سحيقة ربما عدة قرون قبل سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وقد ظلت هذه الحضارة قوة نشطة حتى العصور الهيلينية؛ أي إلى ما بعد الإسكندر الأكبر. وعلى الرغم من أن عصور ما قبل التاريخ المكتوب في هذه الحضارة قد درست من بعض جوانبها دراسة جيدة بفضل علم الآثار، فإن الجوانب الثقافية والاجتماعية ما تزال غامضة إلى حد ما. أما الفترة التاريخية فإن وثائقها متوفرة بفضل معرفة الكتابة (١٧). ويجدر بنا أن نلاحظ أن حضارة بلاد الرافدين القديمة قد اتسمت باتساق أساسي في بنائها على امتداد تاريخها على الرغم من التنوع الكبير بين الشعوب التي شاركت في بناء هذه الحضارة إذ إن بلاد الرافدين لم تكن مثل مصر أو فلسطين وطناً لعنصر واحد متجانس، وإنما عبرت أراضيها مجموعات جنسية عديدة، وربما كانت هناك أكثر من جماعة إثنية تعايشت معاً في وقت واحد، فالسومريون والآشوريون والبابليون هم المعروفون أكثر من غيرهم بيد أنه كانت هناك أيضاً أجناس أخرى غيرهم.

ويرجع الفضل إلى السومريين في الحفاظ على هذا الاتساق (١٨)، كما أن الديانة السومرية كانت الأساس الذي

قامت عليه الديانة ببلاد النهرين فيما بعد، ففي غضون الألف الثالثة قبل الميلاد طور السومريون أفكاراً دينية ومفاهيم روحية تركت تأثيراً لا يمكن إنكاره على ديانات العالم الحديث (١٩). وتكشف الأساطير السومرية عن أن السومريين كانوا يرون في مجمع الآلهة شكلاً عظيماً من أشكال المجتمع البشري بحيث تدخل كل منهما في الآخر، فالإنسان يأخذ بدايته من الآلهة على حين تقترب الآلهة من البشر إذ إن السومريين لم يتصوروا أن هناك إلهاً واحداً هو مصدر القوة والسلطة، وإنما تصوروا أن هناك مجموعة من الآلهة على نمط المجتمع البشري (٢٠).

لقد لعب السومريون دوراً مهماً في حضارة بلاد الرافدين عموماً، ومن ثم فإن فكرة التاريخ لديهم تشكل أحد المفاتيح المهمة لفهم «القراءة الأسطورية» لتاريخ تلك البلاد إذ كان الفرد في العراق القديم واعياً بماضيه لأنه كان مشغولاً على الدوام بتسجيل تفاصيله بحيث يستخرج منه دروساً عملية محددة. حقيقة أنه لم يكن لديهم هذا «التاريخ» الذي نعرفه الآن، ولكنه بالنسبة لهم كان شيئاً يأتي ضمن قضايا أشمل، مثل قضايا الحياة والمصير، كما تجلت في الماضي وكما سجلتها الأساطير، وهي بهذا مرتبطة بالحاضر، منعكسة على المستقبل، فقد كان الحس التاريخي في بلاد الرافدين القديمة شيئاً يمكن أن يعيشه الناس، لا أن يفكروا فيه (٢١) وهناك أدلة كثيرة على الاهتمام بالماضي في هذه البلاد، والكثير منها ذو مدلول تاريخي مباشر؛ مثل القوائم الملكية، والمؤرخات والحواليات، فضلاً عن المؤلفات الأدبية التي نسجت فيها الحقائق التاريخية المجردة بالأساطير والحكايات التاريخية الملحمية، ذلك أنه كان على الأدب أن يتوجه صوب الماضي لأن أكثر موضوعاته شعبية كانت مهمة بحد ذاتها.

ولعل أكثر الأمثلة وضوحاً على هذا ملحمة جلجامش التي جسدت الجمع بين الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، فالملحمة «عمل تاريخي يمجّد شخصية من أهم الشخصيات التاريخية في بلاد النهرين» (٢٢) فالبطل جلجامش هو أحد ملوك بلاد النهرين في العصر السومري؛ إذ أثبتت الحفريات الأثرية وجود ملك يدعى جلجامش عاش حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وهو الملك الخامس في قائمة ملوك سومر، ولأن المعروف من المصادر التاريخية التقليدية قليل عن هذا الملك، فقد صار هو البطل المطلق للأسطورة السومرية، وبهذا كانت القراءة الأسطورية لتاريخ هذه الشخصية تعويضاً لنقص المعلومات التاريخية.

الإغريق بحوالى ألف وخمسمائة سنة^(٢٧) وتكمن أهميتها فيما تحتويه من الدلالات التاريخية والدينية والأنثروبولوجية.

وقد انحدرت الأساطير والملاحم الأكادية (أى البابلية والآشورية) من الأساطير السومرية وأخذت عنها النماذج والموضوعات بشكل مباشر. فأسطورة «نزل عشتار إلى العالم السفلى»، وقصة «الطوفان»، كما رويتا فى ملحمة جلجامش، مأخوذتان من أصول سومرية معروفة بل وإن الأساطير البابلية والآشورية التى لا نجد لها مقابلاً سومرياً تحتوى على موضوعات أسطورية تعكس التأثيرات أو الأصول السومرية فضلاً عن أن معظم الآلهة المتدخلة فى هذه الأساطير من ضمن مجمع الآلهة السومرى أصلاً^(٢٨) بيد أن هذا لا يعنى أن الأساطير الأكادية كانت تقليداً فحاً للأساطير السومرية؛ إذ أبدع كل من البابليين والآشوريين فى الموضوع وفى حبكة الأسطورة أيضاً.

وأشهر الأساطير الأكادية هى أسطورة الخلق، وهذه الأسطورة الشعرية لم يكن هدفها أن تحكى قصة الخلق بقدر ما كان هدفها أن تعبد الإله مردوخ البابلى ومدينة بابل، ولكن فى سياق هذا الهدف تتحدث عن أفعال مردوخ فى الخلق، وهى بهذا مصدر أساس عن الأفكار الكونية للأكاديين^(٢٩) وتتجلى فى قصيدة الخلق البابلية القراءة الأسطورية لتاريخ بابل الباكر إذ كان الشعراء الأكاديون يشعرون بالحرية فى أن يعدلوا الأفكار الكونية السائدة بالشكل الذى يناسب الحاجة الثقافية/ الاجتماعية الآنية ويقدم قراءة جديدة لأفكار قديمة^(٣٠).

بيد أن ما يهمنى هنا ليس عرض الأساطير فى العراق القديمة، وإنما بيان أنها كانت «قراءة» للماضى بشكل ما؛ إذ كانت تصوراتهم ترى أن الأمور تجرى على الأرض بتوجيه من السماء فالحكام الذين لا ترضى عنهم الآلهة كانوا يجلبون المصائب على بلادهم، كذلك كانت نهاية أية أسرة حاكمة تعتبر نتيجة مباشرة لعدم رضا الآلهة، فقد كان النظر إلى الماضى يقوم على أساس أن كل أسرة حاكمة كانت بمثابة أداة تستخدمها الآلهة لتحديد ما يجرى على الأرض وربما أرسلت الآلهة، بين الحين والآخر، شعباً غريباً لغزو البلاد.^(٣١)

أما المفاهيم الأسطورية المصرية القديمة فقد حاول الإنسان أن يتخذ منها أدوات لفهم شكل ما، أوحادثة ما، أو مجموعة من الأشخاص، أو سلسلة من الأحداث، كانت تبدو وكأنها تنتمى إلى العالم المقدس ولكن فى مصطلحات بشرية. وتعبير «العالم المقدس» يتضمن كل ما لا يمكن شرحه مباشرة

وفى رأى الدكتور محمد خليفة أن هذا «يوضح الدور الذى يلعبه الأدب كمصدر للتاريخ وقد أثبرت الشكوك حول القيمة التاريخية للأساطير والملاحم القديمة نظراً لما يرد فيها من أوصاف غير واقعية، ولاعتمادها على الخيال والرمز وتحويرها للشخصيات إلى غير ذلك من الأمور التى تبتعد بالأسطورة عن الواقع الفعلى لحياة شخصها ومع ذلك فهذا كله لا يعنى أن الأسطورة ليست لها قيمة تاريخية. فالحقيقة أن الصلة بين الأسطورة والتاريخ صلة قوية تحتّم ضرورة الاستفادة من المادة الأسطورية كمصدر للمادة التاريخية فالأسطورة تعبير أدبى عن أنشطة الإنسان القديم الذى لم يكن قد طور بعد أسلوباً للكتابة التاريخية يعينه على تسجيل أحداث يومه...»^(٣٢)

هذا الرأى، الذى نوافق عليه، ينسجم مع ما ذهبنا إليه فى الصفحات السابقة عن الوظيفة الاجتماعية/ الثقافية للأسطورة من حيث كونها «قراءة» للتاريخ وهى «قراءة تعويضية» و«قراءة رمزية» فى آن واحد. ويصدق هذا على ملحمة جلجامش التى تعبر عن الكثير من أنشطة إنسان بلاد الرافدين. وباعتبارها نموذجاً للتفكير الأسطورى فى بلاد النهرين، اشتملت على الأحداث التاريخية القديمة كما اشتملت على عناصر أخرى من عناصر نشاط الإنسان فى العراق القديم.

لقد كانت للسومريين أساطيرهم^(٣٤) كما كانت لهم فى تاريخهم الباكر عصور البطولة التى مرت بها شعوب أخرى كثيرة، وقد تجلت روح عصر البطولة فى الملاحم الشعرية، وربما كانت هذه الملاحم تروى بمصاحبة آلة موسيقية بسيطة بهدف تسليّة رجال البلاط أو فى المناسبات الاحتفالية^(٣٥)، ومن الطبيعى أن أياً من هذه الملاحم البطولية لم يصلنا فى شكله الأصلى، لأنها قد ألفت عندما كانت الكتابة غير معروفة تماماً، أو لم تكن تهم الراوى الأمى كثيراً. وملاحم الإغريق والهنود والجرمان المكتوبة من عصورهم البطولية ترجع إلى فترات تاريخية متأخرة زمنياً إلى حد كبير، وتتألف الملحمة السومرية من قصص منفردة غير مترابطة، تختلف فى أطوالها، وكل منها مقيدة فى إطار قصة بعينها، وليست هناك محاولة لربط هذه القصص أو دمجها فى وحدة أكبر، ويحدد الباحثون تسع ملاحم سومرية تختلف أطوالها ما بين أقل من مائة سطر إلى أكثر من ستمائة سطر^(٣٦) ومثلما ذكرنا من قبل، كانت ملحمة جلجامش من أهم هذه الملاحم التى تركت أثراً باقياً على مر الزمان. وتعتبر ملحمة جلجامش من أقدم الملاحم التى عرفها الأدب الإنسانى؛ فهى تسبق أقدم ملاحم

بالعقل البشرى والشعور الإنسانى. وبطبيعة الحال، كانت هناك أشياء كثيرة تنتمى إلى العالم المقدس وفقاً لتصورات المصرى القديم مثل السماء والشمس وغيرها، مما استعصى آنذاك على التفسير العقلى المباشر.

واستخدام الرمز فى الأسطورة المصرية القديمة - وغيرها - برهان على محاولة الإنسان جعل عنصر من عناصر العالم المقدس، مفهوماً بالمصطلحات البشرية، أى بالعقل البشرى، على الرغم من أن هذا العنصر قد لا يكون متسقاً بالضرورة مع قوانين الطبيعة.

أما المفاهيم الأسطورية المصرية القديمة فربما اتخذت شكل الكلمات (الترانيم - الصلوات - الطقوس) أو الأفعال (العروض المسرحية والشعائر الأخرى) أو الأشياء المادية والصور (النقوش، النباتات، والأجسام السماوية)، أو فى الكائنات الحية (الملك والحيوانات). واستخدام الحكاية لغرض سحرى يشير إلى حقيقة أن الحكاية الأسطورية يمكن أن تكون مؤلفة لهذا الغرض بعينه، أو لمجرد التسلية. ومن ناحية أخرى، يبدو أن سياق الطقوس والشعائر والترانيم التى تدور حول أسطورة ما، ربما كان يخلق صورة أخرى من الحكاية الأسطورية. فضلاً عن أن اللعب بالكلمات قد يخلق تفاصيل جديدة للمفهوم الأسطورى^(٣٢). والخلاصة أن الأساطير المصرية القديمة كانت تعكس واقعاً أكثر من كونها خيالية أو شاعرية، أى أنها بعبارة أخرى كانت «قراءة» للتاريخ أو الماضى تحمل من الرموز والمفاهيم والدلالات ما يساعد الإنسان المصرى القديم على فهم الكون من حوله.

ولا توجد فى اللغة المصرية القديمة كلمة قريبة من كلمة «تاريخ»، بمفهومها المعاصر، كذلك لا يوجد أى نص مصرى قديم يمكن أن نقول إنه يعبر عن «فكرة التاريخ»، بمدلولها الحالى ومع ذلك فإن من الواضح أن المصريين كانوا شديدي الاهتمام بأصل الكون وبآلهتهم وبالحياة بعد الموت، فضلاً عن حرصهم على تدوين وحفظ التقارير التى تحدث عن ماضيهم باعتبارهم «أمة»؛ إذ سجل ملوكهم بحرص ما يمكن أن نسميه حقائق التاريخ العام^(٣٣). كما أن الأفراد تجشمو مشقة كبيرة لكى يحفظوا حقائق التاريخ الشخصى الذى يمكن أن يسبغ عليهم قدراً من الشرف.

وكان هناك اعتقاد مصرى قديم بأنه قبل الملوك بزمان طويل كانت الآلهة تحكم مصر فى نظام زمنى تتابعى. وفى بعض قوائم الملوك يضع المصريون القدماء أسماء الآلهة التى

كانت تحكم على الأرض قبل أن ترحل إلى السماء، وأولى العالم السفلى بل إننا نجد فى بردية تورين الشهيرة التى تحمل قوائم الملوك، والتى يرجح أن تكون قد دونت زمن الأسرة التاسعة عشرة (القرن الثالث عشر قبل الميلاد) - نجد تحديداً لطول الفترة التى حكم فيها كل إله بعد اسمه^(٣٤)، أما القائمة التى وضعها الكاهن المصرى ماينتون باللغة اليونانية، أثناء حكم بطليموس الثانى فى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، فإنها ضمت أسماء الآلهة التى ظهرت فى بردية تورين. وكل من القائمتين نضع بين الآلهة والملوك، أى قبل حكم الأسرات مباشرة، قائمة بـ «أصحاب المجد، الذين يسميهم ماينتون أنصاف الآلهة فقد كان ملوك ما قبل الأسرات يعرفون باسم أتباع حورس، آخر الملوك/ الآلهة، وكانوا ينسبون أنفسهم إليه بحيث كان كل منهم يعتبر نفسه إعادة تجسيد لحورس نفسه^(٣٥)».

هكذا، إذن، كانت أساطير المصريين القدماء «قراءة» لتاريخهم؛ وكانت هناك خاصية ثابتة فى رؤية المصريين للحياة وللماضى كما عكستها أساطيرهم، وربما كان هذا راجعاً إلى عزلتهم الجغرافية النسبية إلى حد ما آنذاك. ولكن يبقى أن أهم عنصر فى رؤيتهم للحياة وللماضى قد تمثل فى إدراكهم لأن شرط وجودهم باعتبارهم شعباً كان دائماً، وسيكون، رهناً بعيشة الآلهة التى لا يملكون لها دفعة^(٣٦).

وربما يكون من المناسب ألا نسرف فى عرض أمثلة أخرى من التراث الأسطورى للمنطقة العربية؛ بيد أننا ينبغى أن نشير إلى أن أساطير هذه المنطقة كانت تحمل فى طياتها بعض «الحقائق التاريخية»، التى تتصل بكل ماله قيمة فى استمرار بقاء الوحدة الاجتماعية على حد تعبير أحد الباحثين^(٣٧) إذ كانت هذه الأساطير تهتم «بالمشكلات العملية الضاغطة فى الحياة اليومية، التى كان الإحساس بها يتضمن أيضاً الإحساس بقوى خارج نطاق الإنسان وتنبغى مواجهتها والسيطرة عليها من أجل الحفاظ على الوجود الإنسانى، وهذه حاجات دائمة للبشر جميعاً، والأسطورة بما يصاحبها من طقوس وشعائر، تسعى إلى تلبية هذه الحاجات».

وينبغى أن يكون واضحاً أن هذه الأساطير لم تكن أدباً للتسلية، كما ينبغى أن يكون واضحاً أنها لم تكن تهتم بالتأملات الكونية فى بدايتها؛ على الرغم من أن صياغتها قد توحى بأنها تتعامل مع الكوزمولوجى، فضلاً عن أنها لم تكن فى البداية شروحاتاً للظواهر الطبيعية وتفسيراً لها؛ إذ كانت

أساطير المنطقة العربية القديمة تتناول أحداثاً تورط فيها البشر إلى الدرجة التي مست وجودهم ذاته. وفي رأى البعض أن الأساطير الشعرية لم تكن مجرد شكل من أشكال التسلية والمتعة، كما أنها لم تكن مجرد تفسير لمسائل كانت تؤرق أصحاب العقول الحساسة وإنما كانت سرداً في شكل قصصى للحقائق الكونية فى الحياة، والتي يجب على الإنسان أن يتواءم معها، (٣٨).

وهنا يجب أن نولى اهتماماً خاصاً لكلمة «كونية»؛ لأن الأسطورة تتعامل مع «كلية» الوجود البشرى ولا تهتم بجزئياته فالأساطير كانت محاولة جادة تحمل لبّ الحقيقة والتجربة بل إنها أكثر جدية مما نسميه اليوم «فلسفة الفرد فى الحياة»؛ ذلك أن هدفها الكلى ما هو مهم بالنسبة لحاجات الإنسان الوجودية، مادياً وعقلياً ودينياً. ومن ثم فإن لها جوانبها التى تتصل بالعلم والمنطق والعقيدة.

وإذا كنا قد عرضنا بإيجاز لبعض أساطير المنطقة العربية فإن من الواجب أن نشير إلى حقيقة مهمة مؤداها أن المنطقة الواقعة ما بين حضارة الرافدين القديمة، وحضارة النيل القديمة لم تكن بمعناى عن تأثيرات هذه الأساطير، لقد ذهب مؤرخو الأجناس إلى أن العربى والفينيقي والآشورى والبابلى من أب واحد، بيد أن الثقافة التى كانت سائدة فى الشعوب المتحضرة فى العراق والشام ومصر قديماً ظلت بعيدة إلى حد ما عن العرب الذين كانوا معزولين نسبياً داخل صحراء شبه الجزيرة العربية. ومن ثم اختلف العرب عن حولهم فى البيئة الاجتماعية والاقتصادية، ولكنهم تشابهوا معهم فى عاداتهم الوراثية وعقائدهم الدينية، فقد كانت عقيدة الخلق والبعث والطوفان متشابهة عند كل من العرب والبابليين (٣٩).

هكذا، كانت أساطير المنطقة العربية متجانسة تحمل تشابهات ومتوازيات كثيرة؛ لا غرو، فإن الأصول «التاريخية» القديمة لشعوب هذه المنطقة واحدة ولذلك جاءت «القراءة» الأسطورية لهذه الأصول التاريخية متضمنة موضوعات متشابهة وأفكاراً ومفاهيم متماثلة فى كثير من الأحيان.

تبقى فى هذا الفصل بعض الملاحظات الختامية حول طبيعة «القراءة» الأسطورية للتاريخ، ومغزاها ودلالاتها.

وربما يكون مفيداً فى هذا الصدد أن نشير إلى أن العلاقة بين الأسطورة والتاريخ علاقة جدلية وطيدة فالأسطورة هى الأب الشرعى للتاريخ، أو لنقل إن التاريخ فرخ من أفراخ

الأسطورة تكوّن فى رحمها وتربى فى حجرها. ومن يبحث فى الأساطير عن التاريخ سوف يجد إلى جانبه خيالاً كثيراً، كما أن من يبحث فيها عن الخيال سيجد تاريخاً كثيراً (٤٠) يصدق هذا على التراث الأسطورى للمنطقة العربية كما يصدق على الإلياذة والأوديسة وغيرهما فى التراث الإغريقى القديم (٤١) وهنا نلاحظ أن هناك عدة روابط تربط بين الأسطورة والتاريخ، فالأسطورة، كما لاحظنا فى الصفحات السابقة، تعبير أدبى عن أنشطة الإنسان القديم الذى لم يكن قد طور بعد أسلوباً للكتابة التاريخية يسجل بها هذه الأنشطة أى أنها «قراءة» أولية، حافلة بالرموز والصيغات الفنية والأدبية، لتاريخ الإنسان القديم حين لم تكن هناك «قراءة» أخرى لهذا التاريخ.

لقد كانت الأسطورة هى الوعاء الذى ضم خلاصة أفكار الإنسان، والوسيلة التى عبر بها عن مختلف أنشطة البشر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، ولهذا نجد أن فترات تاريخية طويلة لا نجد مصادر لتاريخها سوى الأساطير والأدب، والآثار أحياناً، وقد وصفها البعض بالعصور الأسطورية من عمر الشعوب لأن الأسطورة، فيما يبدو، كانت الوسيلة الوحيدة لقراءة تاريخ تلك الشعوب. ولا تعنى عبارة «العصور الأسطورية»، خلو تلك العصور من الأحداث التاريخية الواقعية، ولكنها تشير إلى أن القراءة الأسطورية للأحداث التاريخية كانت تناسب العقل الإنسانى فى تلك الحقب الموعلة فى القدم (٤٢).

والقراءة الأسطورية للتاريخ عبارة عن بناء فكرى له تصورات ومفاهيمه الخاصة عن الزمان والمكان وإحساسه الخاص بهما على نحو ما أوضحنا من قبل.

وثمة رابطة أخرى بين الأسطورة والتاريخ تكشف عن خصائص القراءة الأسطورية للتاريخ؛ فالتاريخ، باعتباره علماً، وسيلة حديثة نسبياً للتعبير عن نشاط الإنسان فى الكون عبر الزمان، وقد حلت «القراءة» الموضوعية للتاريخ - من خلال مناهج البحث التاريخى - محل القراءة الأسطورية ولذلك فإن بدايات القراءة التاريخية الموضوعية لأنشطة الإنسان هى نفسها أواخر عصر القراءة الأسطورية لها وهى فترة تختلف من أمة لأخرى بحسب التطورات التى مرت بها كل أمة.

إن الفصل بين الأسطورة والتاريخ، فيما يتعلق بقراءة قصة الإنسان فى الكون، يبدو فصلاً تعسفياً لا يقوم على أساس من

الواقع، ذلك أن تشابه هدف كل من القراءة التاريخية والقراءة الأسطورية لنشاط الإنسان يجعل الأسطورة والتاريخ يبدوان وجهين لعملة واحدة، إذ إن كلاهما يهدف إلى تسجيل النشاط الإنساني وقراءته؛ أى تفسيره وشرحه بما يناسب الحاجات الثقافية/ الاجتماعية للجماعة الإنسانية. وربما يرى البعض أن الأسطورة قد اهتمت أيضاً بتسجيل النشاط الإلهي^(٤٣) بيد أننا لا ينبغي أن ننسى أن كثيراً من آلهة العالم القديم جاءت من أصول بشرية بمعنى أنهم إما كانوا ملوكاً أو أبطالاً أو أشخاصاً بارزين وحولتهم شعوبهم إلى آلهة لسبب أو لآخر. وهنا ينبغي أن نلاحظ أن تصرفات الآلهة، وصراعاتها أحياناً، كانت مشابهة إلى حد كبير لتصرفات البشر وصراعاتهم، بل إن التداخل بين أدوار الآلهة وأدوار البشر يبدو واضحاً في هذه الأساطير.

من ناحية أخرى، فإن إضفاء الألوهية على الملوك - إما باعتبارهم من نسل الآلهة، وإما باعتبارهم الواسطة بين الآلهة والبشر، وإما بتأليههم بعد موتهم - كان عملية سياسية يقصد بها تبرير السلطة المطلقة لحكام الزمن القديم وتأكيد ملكيتهم للموارد العامة في بلادهم، ومثلما كانت مشكلة قدسية الحاكم ذات تأثير على القراءة الأسطورية للتاريخ فإنها كانت ذات أثر عميق على فكرة التاريخ لدى شعوب العالم القديم.

ففى بلاد الرافدين القديمة، مثلاً، كان تصور الحاكم إلهاً وراء تكوين فكرة التاريخ المحلية، فتصور الحاكم على أنه إنسان عادى فإن لم يكن ليُجعل الرعايا يخضعون له تماماً من ناحية، ولم يكن ليُجعل رؤيتهم للتاريخ مغلفة بالمسحة المقدسة من ناحية أخرى، ولأنه لم يكن هناك إله واحد قدير فى مجمع آلهة بلاد الرافدين، فإنه كان من الصعب على الحاكم البشرى إرضاء كافة الآلهة، ولذلك كان من السهل على الحاكم الإله أن يقيم علاقة مباشرة مع الآلهة البعيدة^(٤٤) وهذا هو السبب فى تأليه حكام بلاد العراق القديم، وفى أن الأساطير اهتمت بقراءة أعمالهم.

وما يصدق على بلاد النهرين القديمة يصدق على غيرها، ومن ثم فإن القول بأن القراءة الأسطورية اهتمت بتسجيل نشاط الآلهة، إلى جانب اهتمامها بتسجيل نشاط البشر، يبدو مفهوماً تماماً.

ثمة جانب آخر فى الروابط التى تجمع الأسطورة بالتاريخ من جهة، وتضفى على القراءة الأسطورية قيمة ذاتية من جهة ثانية. ذلك أن ربط التاريخ بالواقع والأسطورة بالخيال على نحو قاطع لا يبدو منسجماً مع حقائق الأمور، فالقراءة

الأسطورية تدور بالفعل حول «واقع» تاريخى، كما أن التاريخ فى قراءته للأحداث لا يخلو من الخيال^(٤٥) فالأحداث التى تتناولها الأسطورة تحمل «نواة» تاريخية، ولكن نقص المعلومات المدونة، والبعد الزماني، جعل هذه النواة تختفى تحت تراكمات خيالية ورمزية هى فى حقيقة أمرها محاولات للشرح والتفسير والفهم. ومن ناحية أخرى، فإن الدراسة التاريخية، بمعناها الحديث، لا تخلو من الخيال، كما أن الأساطير قد سربت بعض تفاصيلها إلى الكتابات التاريخية.

خلاصة القول إن «القراءة الأسطورية للتاريخ، كانت المرحلة الأولى فى تاريخ التاريخ أو فى تاريخ قراءة مسيرة البشر فى الكون عبر الزمان (ومن المهم أن نشير هنا إلى أننا نستخدم مصطلح «التاريخ» بمعناه العام والشامل الذى يدل على رحلة الإنسان على كوكب الأرض منذ الخليفة وحتى الآن وهو معنى مرادف لكلمة «الماضى» بكل ما يحويه هذا الماضى) وهذه «القراءة» كانت النواة التى نبتت منها شجرة المعرفة التاريخية بكل تجلياتها عبر عصور التاريخ الإنسانى، وقد تميزت بأنها «نواة تاريخية»، على الرغم من كل الرموز والدلالات والصياغات الخيالية التى أثقلت هذه «القراءة» الأسطورية، للتاريخ. ومع نمو شجرة المعرفة التاريخية من هذه النواة ظلت خصائصها الأسطورية واضحة فى المعرفة التاريخية حتى اليوم، ذلك أن «القراءة الدينية»، و«القراءة العنصرية» (الاستعمارية) حملت ذلك التحيز الذى ميز القراءة الأسطورية ومالت إلى تفسير التاريخ لصالح الدين أو لصالح العنصر البشرى. ومن ناحية أخرى، فإن «القراءة الشعبية» للتاريخ، أيضاً، ارتكزت على المفاهيم الرمزية التعويضية التى كانت أساساً للقراءة الأسطورية؛ بيد أن الفارق الأساسى بينهما تمثل فى أن الأساطير اهتمت بأنشطة البشر والآلهة على حين ركزت القراءة الشعبية على دور عامة الناس فى صنع التاريخ.

أما الدراسة التاريخية الحديثة، بكل مناهجها وأساليبها البحثية الصارمة، فإنها لم تستطع أن تتجاهل الأساطير والملاحم باعتبارها مصدراً مهماً من مصادر الدراسة التاريخية، وفى نطاق تطور الدراسات التاريخية التى سارت فى خط مواز لتطور البشرية ذاتها مرت «قراءة» التاريخ بمراحل مختلفة كانت أولها «القراءة الأسطورية»، ووصلت إلى «القراءة البحثية» للتاريخ حالياً فى محاولة للإجابة عن السؤال الذى يبدأ بكلمة «ماذا»، بعد أن كانت تهتم فيما مضى بأن تحكى «ماذا» حدث.

- (1) Samuel Noak Kramer (ed.), Mythologies Of The Ancient World, (Dauldy and Co., UsA, 1961), P.7.
- (2) Edmond R. Leach, "Genesis as Myth", in John Homilton (ed), Myth and Cosmos - Readings in Mythology and Sympolism, (The Nature History Press, New York 1971), p.p. 1-2
- (3) John F.Priest, "Myth and Dream in Hebrew Scripture in: Joseph Campell (ed), Myth, Dream and Religion, (E.P.Dutton and Co. N.y. 1970), P.49.
- (٤) محمد عبدالمعيد خان، الأساطير والخرافات عند العرب، (دار العدائنة، بيروت ١٩٨١م)، ص ٢٠.
- (٥) كان أصل اللغة موضوعاً للأساطير منذ القدم؛ إذ يحكى هيرودوت عن ملك مصري قديم أمر بعزل طفلين رضيعين عزلة تامة لكي يعرف نوع اللغة التي سيتحدثان بها تلقائياً. ومنذ القرن التاسع عشر بدأت دراسة الأساطير جدياً من خلال البحث الفيلولوجي على اعتبار أن علم الأساطير يوفر أرضية مشتركة لكل من الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم النفس وفقه اللغة، فضلاً عن فهم النقد الأدبي. ويرى كاسيرر أن التشابه بين دراسة اللغة ودراسة الأساطير سببه أن كليهما برز من أصل غير عقلاني في التجربة الإنسانية. انظر: أنطوى ثورلبي، اللغة والأسطورة، (ترجمة منيرة كروان) عين للدراسات والبحوث ١٩٩٧م.
- (٦) انظر المناقشة المفيدة والموجزة حول أصول الأساطير وتفسيراتها:
- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى - دراسة في الأسطورة السورية وبلاد الرافدين (دار سومر - نيقوسيا - قبرص، الطبعة السادسة ١٩٨٦م) ص ١١ - ص ٢٣.
- (7) Gordon Childe, What Happened in History, (Pengim 1964), P.13
- (٨) قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس، (بغداد ١٩٨١م)، ص ١٠ - ص ١١.
- (٩) حسام الألوسي، الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨٠م)، ص ٣٩ - ص ٤٠.
- (10) Childe, What Happened in History, PP.16 - 17
- (11) Childe, Op. cit., PP.17 - 23
- (١٢) روبين جورج كولينجود، فكرة التاريخ، (ترجمة محمد بكير خليل - مراجعة محمد عبد الواحد خلاف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨م)، ص ٥١ - ص ٥٢.
- (١٣) قيس النوري، المرجع السابق، ص ١٩.
- (١٤) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص ٢١.
- (١٥) المصدر السابق نفسه، ص ١٦.
- (١٦) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣ - ص ٥٠.
- Cf.Samuel Noak Kramer, The Sumorians: Their History, Culture, and Character, (The University Of Chicago Press, 1963), PP.112 - 164.
- (17) E.A.Speiser, "Ancient Mesopotamia", in Robert C.Denton (ed), The idea Of History in The Ancient Near East, Cyale Univ.Press PP.40 - 1955.
- (18) Samuel Noak Kromer, The Sumerians, P.33
- ومنذ حوالي سنة ٤٥٠٠ ق.م، عندما تم تأسيس أول مستوطنات سومرية حتى سنة ١٧٥٠ ق.م. تقريباً، عندما اختفى السومريون من الوجود المستقل، امتدت حوالي ثلاثة آلاف سنة شكلت تاريخ السومريين.

- (19) ibid,P.112.
- انظر الفصل الخاص عن ديانة السومريين (pp.112 - 164)
- (20) Speiser, "Ancient Mesopotamia", PP.42 - 43.
- (21) ibid, PP. 38 - 39
- (٢٢) محمد خليفة حسن، الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، (مؤسسة عين للدراسات والنشر، ١٩٩٧م)، ص ٢٣ - ص ٢٥.
- (٢٣) المرجع السابق نفسه، ص ٢٤.
- (24) Samuel Noak Kramer, The Sumerians, PP.170 - 183. انظر:
- (25) Ibid, PP. 183 - 184.
- (٢٦) تدور اثنتان من هذه الملاحم حول البطل إنمركر Enmerker، واثنتان تتركزان حول البطل لوجا ليندا Lugalbanda على الرغم من أن إنمركر يلعب دوراً في كليهما. أما الخمس الباقيات فتدور حول جلجامش أشهر الأبطال السومريين انظر: Samuel Noak Kromer, Op. Cit., PP. 185
- (27) N.K. Sanders, The Epic Of Galgamesh, (Penguin 1964) P.7.,
- محمد خليفة حسن، الأسطورة والتاريخ، ص ١١.
- (28) Samuel Noak Kramer, "Mythology Of Sumer and Akkad" in: Mythologies of The Ancient World, P.120
- (29) Idem.
- (30) Ibid, P.123.
- (31) Speiser, "Ancient Mesopotamia", PP.55 - 58
- (32) Rudolf Anthes, "Mythology in Ancient Egypt", in Kramer (ed)., Mythologies of the Ancient World, PP.23 - 24.
- (33) LudlowBull, "Ancient Egypt" in: Robert C.Denton(ed), The idea Of History in The Ancient Near East, (YoleUniversity Press, 1955).PP. 3 - 4.
- (34) Ibid, PP. 5 - 6.
- (35) Ibid, PP. 7 - 9
- (36) Ibid, PP. 32 - 33
- (37) Priest, "Myth and Dream in Helrew Scripture", PP.50 - 5
- (38) Ibid, P. 51
- (٣٩) محمد عبدالمعيد خان، الأساطير والخرافات عند العرب، ص ٢٣ - ص ٢٥.
- (٤٠) قاسم عبده قاسم، «تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية»، مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الأول (الكويت ١٩)، ص ١٩٧ - ص ١٩٨.
- (٤١) لطفي عبد الوهاب، «عالم هوميروس»، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر (الكويت ١٩٨١)، ص ١٣ - ص ١٥.
- (٤٢) محمد خليفة حسن، الأسطورة والتاريخ، ص ٢٤.
- (٤٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦ - ص ٢٧.
- (44) Speiser, "Ancient Mesopotamia", P.63.
- (٤٥) محمد خليفة حسن، الأسطورة والتاريخ، ص ٢٧.